﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزّخرف: 12 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تسخيرُ المكانِ وما فيهِ لخِدمةِ الإنسانِ

لمّا ذكرَ المَولى تعالى استدلالًا وامتنانًا خلْقَ الأرضِ؛ لتكونَ مَهْدًا، وجعلَ فيها سُبُلًا، وبيَّن أهمّيَّةَ الماءِ لدوامِ الحياة على هذه الأرضِ؛ ذكَّرَ بعدَ ذلك بنعمةِ إيجادِ المخلوقاتِ كلِّها والأصنافِ المتعدِّدةِ بصورةِ زَوجينِ؛ ليدومَ النَّسلُ، ويَستمرَّ، وخصَّ الإنسانَ دون المخلوقاتِ بمزيدِ الإنعامِ مِن ركوبِ الفُلك والأنعامِ معَ شُكْرِ المُنعِم على كلِّ تلك النِّعَمِ وعدمِ نسيانِ الرُّجوعِ إليه بالإيمانِ به والعمَلِ بأوامرِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: أصلٌ يَدُلُّ على مُقارَنَةِ شَيءٍ لِشَيءٍ، مِن ذَلِكَ الزَّوجُ زَوجُ المَرأةِ، والمَرأةُ زَوجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ[1]، ويقال: لفُلانٍ زوجانِ من الحَمام، أي: ذكرٌ وأُنثى[2]، والزَّوجُ: خلافُ الفَردِ، يقال: زوجٌ أو فردٌ[3]، والزَّوْج: الصِّنْف من الشَّيء، وقَولُهُ تَعالَى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: 58]، قالَ مَعْناهُ: ألوانٌ من العَذاب، ووصفُهُ بالأزواج؛ لأنَّهُ عَنى بذلك الأنواعَ من العَذاب والأصنافَ مِنْهُ[4]، والزَّوْجُ الشَّكْلُ يَكونُ لَهُ نَظيرٌ كالأصْنافِ والألوانِ، أو يَكونُ لَهُ نَقيضٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).
(2) الخليل، العين: (زوج).
(3) الجوهري، الصّحاح: (زوج).
(4) الصّاغاني، المحكم والمحيط الأعظم: (زوج).

كالرَّطْبِ واليابِسِ والذَّكَرِ والأُنْثَى واللَّيْلِ والنَّهارِ والحُلْوِ والمُرِّ[1]، والمرادُ به في الآيةِ: الأصنافُ مِنَ المخلوقاتِ بأسْرِها؛ إذِ الزَّوجُ كلُّ ما يَصيرُ به الواحدُ ثانيًا[2].

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: الفُلكُ: السَّفينةُ، يُذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهي واحدةٌ، وتكونُ جمعًا، والفُلْكُ: جماعةُ السُّفُنِ[3]، والفَلَكُ محرَّكةً: مَدارُ النُّجومِ، والجمعُ: أفْلاكٌ وفُلُكٌ بضمَّتينِ، ومن كلِّ شيءٍ مُسْتَدارُهُ ومُعْظَمُهُ، ومَوْجُ البَحْرِ المُضْطَرِبُ، والماءُ الذي حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ، والتَّلُّ من الرَّمْلِ حَوْلَهُ فَضاءٌ، وقِطَعٌ من الأرضِ تَسْتَديرُ، وتَرْتَفعُ عما حَوْلَها[4]، والمرادُ به في الآية: السُّفُنُ التي تَمْخُرُ عُبابَ الماءِ الَّذي هو كالفَضاء.

3) ﴿لِتَسْتَوُۥا۟﴾: أصلُ الاستواءِ مِن (سَوى)، وهو يَدُلُّ عَلى استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَينَ شَيئَينِ، وفُلانٌ وفُلانٌ عَلَى سَوِيَّةٍ مِن هَذا الأمرِ، أي: سَواءٍ[5]، والسَّواءُ: العدلُ، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُهُ، وسوَّيتُ الشَّيءَ، فاستَوى، وهما على سويَّةٍ من هذا الأمْرِ، أي: على سَواءٍ، ورجلٌ سَويُّ الخَلْقِ، أي: مستوٍ، واستَوى على ظَهْرِ دابَّتِه، أي: عَلا، واستقرَّ، واسْتَوى إلى السَّماءِ، أي: قَصَدَ، واستَوى، أي: استولَى، وظَهَرَ[6]، واستَوى عَلى الفَرَسِ: استَقَرَّ، واستَوى المَكانُ: اعتَدَلَ، وسَوَّيْتُهُ: عَدَّلْتُهُ[7]، والسَّوِيَّة: كساءٌ يُحْشَى بثُمام أو ليفٍ أو نحوِه، ثمَّ يُجعَلُ على ظهرِ البعيرِ، والمعنى المحوريُّ: استقامةُ ظاهرِ الشَّيءِ أو سَطحِهِ لامتلاءِ غؤورِ وسَطِه، واستوى على ظَهْرِ دابَّتِهِ: استقرَّ كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[8]، والمرادُ به في الآية: الاستقرارُ عليها بشكلٍ معتدلٍ ومُريحٍ وسَيطرةٍ.

4) ﴿سُبْحَٰنَ﴾: لهُ أصلانِ، أحَدُهُما: جِنْسٌ مِنَ العِبادَةِ، والآخَرُ جِنْسٌ مِنَ السَّعيِ، فالأوَّلُ السُّبْحَةُ، وهيَ الصَّلاةُ، ومِنَ البابِ التَّسْبيحُ، وهو تَنْزيهُ اللهِ مِن كُلِّ سوءٍ، والتَّنْزيهُ: التَّبْعيدُ[9]، ثُمَّ استُعْمِل في مواضعَ تقْرُب مِنهُ اتِّساعًا، يُقال: سَبَّحْتُهُ أُسَبِّحُهُ تَسبيحًا

(1) الفيومي، المصباح المنير: (زوج).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 172.
(3) الخليل، العين: (فلك).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (فلك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوى).
(6) الجوهري، الصّحاح: (سوى).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (سوى).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوى).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).

وسُبحانًا، وقيلَ مَعناهُ: التَّسرُّع إلَيْهِ والخِفَّة في طاعَته[1]، وسُبحانَ اللّهِ: تَنْزيهًا للّه من الصّاحِبَةِ والولَدِ، ونُصِبَ على المَصْدرِ، أي: أُبَرِّئُ اللّه من السّوءِ براءَةً، أو معناهُ: السُّرْعَةُ إليه، والخِفَّةُ في طاعَتِهِ[2]، وقالَ الرّاغبُ: أصلُه في المَرِّ السَّريع، فاستُعير للسُّرعة في العَمَل، ثمَّ جُعِلَ للعباداتِ قَولًا وفِعلًا[3]، والمرادُ بهِ في الآيةِ: قولُ سُبحانَ اللّهِ المُشتمِلُ على تنزيهِهِ عن كلِّ ما لا يَليقُ بهِ من نسبةِ الشَّريكِ لهُ في الخَلْقِ والإنعامِ والعِبادةِ.

5) ﴿سَخَّرَ﴾: أصلٌ مُطَّردٌ مُستَقيمٌ، يَدُلُّ عَلَى احتِقارٍ واستِذلالٍ، ويُقالُ: رَجُلٌ سُخْرَةٌ، يُسَخَّرُ في العَمَلِ[4]، والسُّخْرةُ ما تَسَخَّرْتَ من خادمٍ ودابَّةٍ بلا أجرٍ ولا ثمَنٍ، تقولُ: هم لك سُخْرَةً وسُخْريًّا، وقد سَخَّرَها اللّه لخلقِه تَسْخيرًا، وتَسَخَّرتُ دابَّةً لفلان: ركبتُها بغيرِ أجْرٍ[5]، وسَخَّرَهُ تسخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بلا أُجْرَة، وكذلك تَسَخَّرَهُ، والتَّسْخيرُ: التَّذْليلُ، وسُفُنٌ سَواخِرُ؛ إذا أطاعَتْ، وطابَتْ لها الرّيحُ[6]، والمعنى المحوريُّ: انقيادٌ بيُسْرٍ مع عدمِ مُقاومةٍ، ويلزمُ ذلك الخفَّةُ، كما تجري السَّفينةُ، وتتحرَّكُ بيُسْرٍ، لقوَّتِها وضعفِ مُقاومةِ الماء، كما يلزمُ من عدم المقاومة الضَّعفُ، ومنه جاءتِ (السُّخْرَة)[7]، والمرادُ به في الآية: ذلَّلَ لنا المخلوقاتِ مُنقادةً مُطيعةً.

6) ﴿مُقْرِنِينَ﴾: (قرن) له أصلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ عَلى جَمعِ شَيءٍ إلَى شَيءٍ، والآخَرُ شَيءٌ يَنتَأُ بِقوَّةٍ وشِدَّةٍ، فالأوَّلُ: قارَنْتُ بَينَ الشَّيئَيْنِ، وقَولُهُم: فُلانٌ مُقرِنٌ لِكَذا، أي: مُطيقٌ لَهُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، وهو القياسُ؛ لأنَّ مَعناهُ أنَّهُ يَجوزُ أن يَكونَ قِرْنًا لَهُ، والقَرينَةُ: نَفسُ الإنسانِ، كَأنَّهُما قَد تَقارَنا، والأصلُ الآخَرُ: القَرْنُ لِلشّاةِ وغَيْرِها، وهو ناتِئٌ قَويٌّ[8]، وأقْرَنَ لهُ، أي: أطاقَهُ، وقَوِيَ عليه[9]، فَهو مُقْرِنٌ، وكذلكَ أقْرَنَ عَلَيه، ومِنه قولُه تَعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطيقينَ، وهو مِن

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (سبح).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (سبح).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (سبح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(5) الخليل، العين: (سخر).
(6) الجوهري، الصحاح: (سخر).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سخر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(9) الجوهري، الصّحاح: (قرن).

قوْلِهم: أقْرَنَ فُلانًا: صارَ لَهُ قِرْنًا[1]، والقِرْن بالكسر: الكُفْؤُ والنَّظيرُ الَّذي يُقْرَن بك[2]، والمرادُ بهِ في الآيةِ: نفيُ القُدرةِ والطّاقةِ على فعلِ اللّه تعالى وخَلْقِهِ وعجيبِ صُنْعِهِ.

7) ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾: (قلب) له أصلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما: يَدُلُّ عَلى خالِصِ شَيءٍ وشَريفِه، والآخَرُ: عَلى رَدِّ شَيءٍ مِن جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ، وقَلَبْتُ الثَّوْبَ قَلبًا، وقَلَبْتُ الشَّيءَ: كَبَبْتُهُ، وقَلَّبْتُهُ بيَدي تَقْليبًا[3]، وقَلَبْتُ فلانًا عن وجهه، أي: صرفتُهُ، والمُنْقَلَبُ: مصيرُك إلى الآخِرة[4]، وقلبتُ الشَّيءَ، فانقلبَ، أي: انكبَّ، والمُنْقَلَبُ يكون مكانًا، ويكون مصدرًا، مثل المُنْصَرَفِ، وقلبتُهُ بيدي تقليبًا[5]، وفي حَديثِ دُعاءِ السَّفر «أعوذُ بِكَ مِنْ كَآبَةِ المُنْقَلَب»، أي: الانقلاب مِنَ السَّفَرِ، والعَوْدِ إلَى الوطَنِ، يَعْني: أنَّهُ يَعودُ إلَى بَيتِه، فَيَرَى فيهِ ما يُحْزِنه، والانقِلابُ: الرُّجوع مُطْلَقًا[6]، والمعنى المحوريُّ للقَلْبِ: باطنُ الشَّيء ولُبُّه، وقَلْبُ الأرض إخراجُ لباطنها[7]، والمرادُ به في الآية: الرُّجوعُ إلى الأصلِ والعودةُ إلى اللّه تعالى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسخيرُ الكائنات موجِبٌ للشُّكر إلى المَمات

أي: وهو الَّذي خلقَ الأصنافَ كلَّها من جبالٍ متنوِّعةِ الألوانِ والأحوالِ والأحجام، إلى أُناسٍ يَختلفونَ في ألوانِهم وألسنَتِهم، إلى حيوانٍ تتباينُ أنواعُهُ، إلى عوالمَ في البَرِّ والبحرِ وفي السَّمواتِ وفي الأرض، لا يعلَمُ حقيقتَها إلّا هو سُبحانه، وأجرى لكُمُ من السُّفُن ما يَحملُكم في جوفِها، وذَلَّلَ لكم الأنعامَ من الإبل وغيرها ما تركبونَهُ،

(1) الزّبيدي، تاج العروس: (قرن).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(4) الخليل، العين: (قلب).
(5) الجوهري، الصّحاح: (قلب).
(6) ابن الأثير الجزري، النهاية: (قلب).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).

وتعلونَ ظَهْرَه؛ لتستقِرّوا على ظهورِها، وتتمكَّنوا منها، ثمَّ تَذكروا بقلوبِكم وألسنَتِكم نعمةَ ربِّكم وعطاءَهُ لكم، وتقولوا: سبحانَ الَّذي سخَّر لنا هذا، ولو شئتَ ألّا تُمكِّننا مِن هذه الدوابِّ والأنعامِ الَّتي لا حولَ لنا معَها ولا قوَّةَ إلّا بك - لو شئتَ - لفعلتَ، ولكنَّك يسَّرْتَها لنا، وملَّكتَنا أمرَها، وما كُنّا أبدًا مُطيقينَ ذلك ولا قادرينَ عليه، وإنّا لراجعونَ وصائرونَ إلى اللّهِ ربِّنا بعدَ مَماتنا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ على ما قبلَهُ؛ "للانتقالِ مِنَ الاستدلالِ والامتنانِ بخَلْقِ وسائلِ الحَياةِ إلى الاستدلالِ بخَلْقِ وسائلِ الاكتسابِ لِصَلاحِ المَعاشِ، وذَكَرَ منها وسائلَ الإنتاجِ، وأتبَعَها بوسائلِ الاكتسابِ بالأسفارِ للتِّجارَةِ"[2]، والغرضُ من تفصيلِ هذهِ المَخلوقاتِ الرَّدُّ على المشركينَ المُعترفينَ بأنَّه خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وتناسَوا أنَّه خلقَ كلَّ شيءٍ، فلا يستحقُّ أيُّ شيءٍ العبادةَ مِن دونِه، ومِن ثمَّ عدَّد المعطوفاتِ، وتكلَّم عن معاني خلقِهِ لها وحِكمتِهِ في إيجادِها.

خلْقُ الأرضِ وما يُصلِحُها مِهادٌ لخَلْقِ الإنسانِ وما يحتاجُهُ فيها

دلالةُ الاسم الموصول (الَّذي):

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الدّالِّ على ذاتٍ عظيمةٍ جليلةٍ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ موضوعٌ لمُبهَمٍ يُفسَّرُ بجملةِ الصِّلةِ، والإبهامُ يدلُّ على أنَّ تلك الذّاتَ تتحيَّرُ فيها الألبابُ والعقولُ، وأنَّ جملةَ الصِّلةِ تكشِفُ عن شيءٍ من فعلِها وعظَمَتِها، ولذا آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالموصولِ في الجملِ المُتعاطفةِ؛ لبيانِ إبهامِ تلك الذّاتِ حتَّى إنَّ العقلَ لا يستطيعُ الوصولَ إلى شيءٍ مِن كمالاتِها إلّا مِن خلالِ ما تُفسِّرُهُ جملةُ الصِّلة.

إبهامُ الذّاتِ بالموصولِ لقصدِ تعظيمِ الجليلِ سبحانه

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 790 - 791.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 172.

دلالةُ تكرُّرِ الاسمِ المَوصول:

مِن شأنِ النِّعَمِ العجيبةِ إبرازُها مُستقِلَّةً بالبَيان لتَعظِيم المُنعم

كرَّرَ النَّظمُ الكريمُ الاسمَ الموصولَ (الَّذي) في الآياتِ الثَّلاثِ المُتعاطفة؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ نعمةٍ من تلك النِّعَم، وكلَّ خلقٍ من ذلك الخَلْق، وما يتضمَّنُه من حِكَم ودلالاتٍ عندَ التَّأمُّلِ في صُنْعِه وحكمةِ إيجادِه يَحتاجُ إلى ذِكرٍ مُستقِلٍّ للخالقِ والمُنشئِ والجاعلِ لها، كما أفادَ التَّكرارُ أنَّه لا سبيلَ لمعرفةِ حقيقةِ الخالقِ إلّا بشيءٍ من أفعالِه المحسوسةِ التي تظهَرُ لنا؛ لنُدرِكَ شيئًا من عظمتِه وقُدرتِه.

سرُّ جُملةِ الصِّلةِ في: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

الإلـــهُ الـحـقُّ هـو الـقـادرُ على إيجادِ الخَلْق

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن صَدْرِ جملةِ الصِّلةِ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ للدَّلالة على كمالِ قدرتِه، وأنَّ من شأنِ الإلهِ الحقِّ خلْقَ الأشياءِ من العَدَم، والمشركونُ اعترفوا من قبلُ بأنَّ السَّماءَ والأرضَ مخلوقانِ للّه تعالى، فأوضحَ النَّظمُ لهم أنَّه المتفرِّدُ بالخلق، فكيفَ يُشركونَ به ما لا يخلُقُ شيئًا؟ بقي أنَّ النَّظمَ اختارَ صيغةَ الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الخَلْقِ ووقوعِه، وإنْ كان بعضُ الخلق بالنِّسبة لنا يحصُلُ الآنَ أو في المستقبل؛ لأنَّ الخلْقَ الآنيَّ والمستقبليَّ لتحقُّقِ وجودِه كأنَّه مخلوقٌ ماضيًا.

دلالةُ خلْقِ الأزواجِ:

تنوُّعُ المخلوقاتِ دليلُ وحدانيَّةِ الخالقِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بجُملةِ الصِّلة مُتعلِّقةً بـ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ مخلوقٍ له زوجٌ ومثيلٌ ومقارنٌ، وكلٌّ واحدٍ منهما دالٌّ على أنَّ له موجِدًا اختارَ له القرينَ والزَّوجَ والمَثيل، وكلُّ ما له مثيلٌ مُتعدِّدٌ ومُتكثِّرٌ، فيفتقرانِ إلى الذّاتِ الَّتي لا يُمكِنُ أنْ تكونَ متعدِّدة ومُتكثِّرةً، وإلّا كانت مُفتقِرةً إلى ذاتٍ أُخرى اختارَتْ لها المثيلَ، وهو مُفضٍ إلى التَّسلسُلِ الباطل[1]، كما أفادَتِ الزَّوجيَّة أنَّ كلَّ صنفٍ مخلوقٍ له

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 621.

مثيلٌ من جنسِهِ ونوعِهِ وصفتِه، بقي أنَّ (الـ) الدّاخلةَ على الجمعِ دالَّةٌ على الاستغراقِ الكلّيِّ، كما يُنبئُ عنه التَّوكيدُ بلفظِ (الكلِّ)، وإنَّما عبَّر باللَّفظِ المُستغرِقِ لإبطالِ دَعوى المُشركينَ في استحقاقِ بعضِ المَخلوقاتِ العبادةَ من دونِ اللّه تعالى؛ إذ ما مِن صنفٍ إلّا وهو مخلوقٌ للّه تعالى، فلا يستحقُّ أنْ يكون مَعبودًا.

دلالةُ التَّوكيدِ المعنويِّ ﴿كُلَّهَا﴾:

كـلُّ الأصنـافِ مُفتقِرةٌ للخالقِ بإنصاف

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الاستغراقِ الشُّموليِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ بلفظِ التَّوكيد (كل) الدّالِّ على دفْعِ توهُّمِ عدمِ الشُّمولِ وإرادةِ البعض، وفي هذا التَّوكيدِ تقريرٌ للشُّمولِ المتحصَّلِ من (الـ) الاستغراقيَّة في ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾، وتثبيتٌ للمعنى الكلّيِّ في ذهنِ السّامع، ويُفهَمُ مِن هذا الشُّمولِ الكلّيِّ افتقارُ كلِّ الأصناف بأزواجِها إلى الخالقِ الحكيمِ تعالى.

دلالةُ استعمال ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ دون (الزَّوجين):

الجمعيَّةُ تفيدُ شمولَ الأفراد، والتَّثنيةُ تدلُّ على الصِّنفين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ عن (الزوج) بلفظِ الجمعِ (أزواج)، في حين عبَّرَ عن خلْقِ الثَّمرات في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: 3] بلفظِ الزَّوجين مثنًّى؛ لأنَّ في عالمِ الثِّمارِ يكون هنالك الذَّكرُ والأُنثى، وكلٌّ واحدٍ منهما زوجٌ بسببِ اقترانِهِ بغيره، فالزَّوجان بمعنى (اثنين)، تربطُهما علاقةُ مُشابهةٍ ومقارنةٍ كالذُّكورة والأنوثة وليس أربعةً، إذِ: "الزَّوجُ في اللُّغةِ الواحدُ الَّذي يكونُ معَهُ آخَرُ، والاثنان زوجانِ، يقال: زَوْجا خُفٍّ، وزوجا نَعْلٍ، ويقالُ لكلٍّ من القرينينِ من الذَّكر والأُنثى من الحيواناتِ المُتزاوجة: زوجٌ، ولكلِّ قرينينِ في غيرِها كالخُفِّ والنَّعل، ولكلِّ ما يقترنُ بالآخَرِ مُماثِلًا لهُ أو مُضادًّا: أزواج"[1]، وأمّا هنا؛ فإنَّ النَّظم أرادَ ما هو الأعمُّ من

(1) السَّمين، عمدة الحفاظ: 2/ 151.

الذُّكورة والأنوثة، وهي المخلوقاتُ بأسرِها، فيشملُ كلَّ صنفٍ وفردٍ مُرتبطٍ بأشباهِهِ وأمثالِه، وليس المرادُ مجرَّد الذَّكر والأُنثى واللَّيل والنَّهار من الثُّنائيّات، بل كلُّ مخلوقٍ له أزواجٌ وأمثالٌ، "فَهو كُلُّ ما يَصيرُ بِهِ الواحِدُ ثانيًا، فَيُطْلَقُ عَلى كُلٍّ مِنهُما أنَّهُ زَوْجٌ لِلآخَرِ مِثلَ الشَّفْعِ"[1]، فيشملُ جميع المخلوقاتِ بأسرِها.

دلالة المجاز في: ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾:

عظمةُ الخالقِ ووحدتُهُ ممّا يجبُ على النّاسِ معرفتُهُ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن المَخلوقاتِ والأصنافِ بلفظِ ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ تسميةً للشَّيءِ بما يؤولُ إليه؛ إذ مِن شأنِ كلِّ فردٍ وصنفٍ مخلوقٍ بعد خلقِهِ أن يكونَ له مثيلٌ وشبيهٌ وزوجٌ وقرينٌ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِه، ولذا قالوا: "خلقَ كلَّ شيءٍ، فزوَّجَهُ"[2]، وإنَّما عبَّر عنهم بالزَّوجيَّة؛ للدَّلالة على عظمةِ الخلقِ ووحدةِ الخالق؛ إذ الاثنينيَّةُ المتكرِّرةُ في الخلقِ تدلُّ على الوحدانيَّةِ في جنابِ الحقِّ، وإلّا لكانَ مثلَ المخلوقاتِ في الافتقارِ – تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا – إذ "كونُها أزواجًا يدلُّ على أنَّها مُمكِنةُ الوجودِ، وأنَّ مُحدِثَها فردٌ منزَّهٌ عن المُقابِلِ والمُعارِض"[3].

دلالة (الواو) في: ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾:

كلُّ المخلوقاتِ مُسخَّرة، ولخدمةِ الإنسانِ مُذلَّلة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على قولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ عطْفَ النَّتيجةِ على المقدِّمة؛ لبيانِ حكمةِ الخلقِ وإتقانِه، وبهذا العطفِ نُدركُ التَّعاطفَ السّابقَ في قولِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53]، وقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا﴾؛ إذ هنالك إيجادٌ أصليٌّ شبيهٌ بالمقدِّمة، وما يترتَّبُ عليه من خدمةِ الإنسانِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 172.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 380.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرَّيحان: 26/ 198.

الشَّبيه بالغايةِ والنَّتيجة، فلمّا ذكرَ خَلْقَ الأزواجِ كلِّها؛ عطفَ عليها تسخيرَها لخدمةِ الإنسان؛ ليؤولَ الخلقُ بأسْرِهِ مُسخَّرًا لهذا الإنسان، فيكونَ من أعلى الجُحودِ كُفرانُ المُسخِّرِ تعالى، ورأى البقاعيُّ أنَّ العطفَ تفسيرٌ للمُرادِ بالأزواجِ، وهي المخلوقاتُ بأسرِها، فقال: "ولمّا ذكرَ الأزواج، وكانَ المُتبادرُ إلى الذِّهنِ إطلاقَها على ما هو من نوعٍ واحدٍ؛ دلَّ على أنَّ المراد ما هو أعمُّ، فقالَ ذاكرًا ما تشاكلَ في الحَمْلِ، وتباينَ في الجِسْمِ"[1].

دلالةُ الفعلِ (جعلَ) دونَ (خلقَ):

إيجادُ المَعدومِ تخليقٌ، وتَسخيرُ المَخلوقِ جَعْلٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ (جعلَ) دونَ (خلقَ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخلْقَ يتعلَّقُ بالمعدومِ إيجادًا، والجعْلَ يتعلَّقُ بالموجودِ تصييرًا وتسخيرًا، فقد سخَّرَ الفُلكَ بموادِّها الطّافيةِ على الماءِ، والأنعامَ بظُهورِها المتحمِّلة آلةَ ركوبٍ يتنقَّلُ بها الإنسانُ لتحصيلِ مَنافِعِهِ وتحقيقِ أغراضِهِ.

دلالةُ المَجازِ العقليِّ:

الفاعلُ الحقيقيُّ هو اللهُ تعالى

أسندَ النَّظمُ الجعلَ إلى اللهِ تعالى في قولِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، على سبيلِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ الجاعلَ لها مركوبةً هو الإنسانُ بالتَّفكيرِ والصِّناعةِ، لكنْ لمّا أقدرَ اللهُ تعالى الإنسانَ على ذلك؛ نَسَبَ الفعلَ إلى ذاتِهِ الجليلة؛ إظهارًا للامتنانِ بخَلْقِ الإنسانِ وصُنْعِهِ وفِكْرِهِ[2].

سرُّ مُباشرةِ الجَعْلِ للفُلكِ دونَ الأنعامِ:

التَّمييزُ بينَ المَصنوعِ والمَخلوقِ للكشفِ عن الحكمةِ البالغة

لاحظَ بعضُ المُفسِّرينَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ دخولَ فعلِ (الجَعْلِ) مباشرةً على ﴿ٱلْفُلْكِ﴾، ودخولَهُ بالعطفِ والتَّبعِ على (الأنعامِ)، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك التَّمييزُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 393.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 173.

بينَ المَصنوعِ والمَخلوقِ، فالفلكُ مجعولةٌ بالصُّنعِ، وأمّا الأنعام؛ فهي مخلوقةٌ، ومِن ثمَّ حكم بأنَّ تقديمَ: "الفُلْكَ عَلى الأنعامِ؛ لأنَّها لَم يَشمَلْها لَفظُ ﴿ٱلْأَزْوَاجَ﴾؛ فَذِكْرُها ذِكْرُ نِعْمَةٍ أُخْرَى، ولَو ذَكَرَ (الأنعامَ)؛ لَكانَ ذِكرُهُ عَقِبَ ﴿ٱلْأَزْوَاجَ﴾ بِمَنزِلَةِ الإعادَةِ، فَلَمّا ذَكَرَ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ بِعُنْوانِ كَونِها مَركوبًا؛ عَطَفَ عَلَيها (الأنعامَ)، فَصارَ ذِكرُ (الأنعام) مُتَرَقَّبًا لِلنَّفسِ لِمُناسَبَةٍ جَديدَةٍ"[1]، والَّذي يبدو لنا أنَّ كُلًّا من الفُلكِ والأنعامِ مَجعولًا؛ لأنَّ الخلقَ سبقَتِ الإشارةُ إليهِ بقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، ويشملُ كلَّ أحدٍ صارَ زوجًا بسببِ وجودِ مُشابِهِه، لكن قُدِّمَ الفُلك على الأنعام؛ لأنَّ جَعْلَ الفلكِ، وهي غيرُ عاقلةٍ أداةً للرُّكوبِ أظهرُ على التَّسخير والامتنانِ؛ إذ طوَّعَ الأجسامَ الثَّقيلةَ للطَّفْوِ على الماء، وتلك آيةٌ تتعلَّقُ بما أودعَهُ في خواصِّ الموادِّ من أسرارٍ وآياتٍ، تدلُّ على الإتقانِ في الجَعْل، كما أنَّ الأنعامَ خلقَها، وذلَّلَ ظُهورَها للحَمْلِ والنَّقلِ أيضًا، قال الهرريُّ: "وتقديمُ الفُلك على الأنعام؛ لأنَّ الفلكَ أدلُّ دليلٍ على القُدرةِ الباهِرة، والحِكمةِ البالِغة"[2].

دلالةُ الإضمارِ في: ﴿وَجَعَلَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن فاعلِ (الجعل) بأسلوبِ الغَيبةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ مع أنَّ الجاعلَ هو الخالقُ العَظيم؛ للدَّلالةِ على العِلْمِ به دونَ ذِكرِهِ صَريحًا، وأنَّ الذِّهن لا يلتفتُ إلّا إليه، كما أنَّ الحديثَ عن أمرٍ عظيمٍ في الجَعْلِ والخَلْقِ والتَّكوين، فناسَبَهُ الإضمارُ والتَّغييبُ؛ بحثًا عن أسرارِ الخَلْقِ الموصِلِ إلى عظمةِ الخالقِ.

تغييبُ الجاعل في الخطاب تحريضٌ للخلق على أسرار الخالق سبحانه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 173.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 198.

دلالةُ تقديمِ البَيانِ على المُبيَّن:

التَّقديمُ للبيان أهمُّ في مقامِ الاستدلالِ والامتنانِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾ تقدَّمَ البيان لـ(ما) المُبهمةِ عليها؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بالبيانِ؛ إذْ ذِكْرُ المركوبِ من ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أهمُّ في مقامِ الامتنان والاستدلالِ على عظيمِ خَلْقِ اللّه وكريمِ فَضلِه، وكما قدَّم النَّظمُ الكريمُ المجعولَ لهم في ﴿لَكُم﴾؛ قدَّمَ المجعولَ ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ على الجَعْلِ ﴿تَرۡكَبُونَ﴾؛ لأنَّ الجعلَ ظاهرٌ للعيانِ، لكنْ نُسيَ التَّخصيصُ بالإنسانِ، فقدَّمه، ولم تُذكَرِ النِّعمُ، فقدَّمَها، فكانَ التَّقديمُ لهما تحقيقًا لهذا المرادِ، مع الحفاظِ على الفاصلةِ القرآنيَّةِ، قال الهرريُّ: "وتقديمُ البيانِ على المُبيَّنِ للمُحافظةِ على الفاصلةِ النّونيَّة"[1].

دلالةُ استعمالِ ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ دونَ (السُّفُن):

ركوبُ الأمواجِ العاتيةِ مِن نِعَمِ اللهِ العاليَة

في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ على لفظِ (السُّفُن)؛ لأنَّ المرادَ الدَّلالةُ على ركوبِ الماءِ بالأمواج، ومن معاني الفُلكِ الموجُ، فتكونُ الفلكُ راكبةً على الماءِ، والراكبُ فيها راكبٌ على الماءِ أيضًا بواسطتِها، بخلافِ السَّفينة فإنَّها مشتقَّةٌ من السَّفْنِ، وهو التَّقشيرُ؛ لأنَّها تقشرُ وجهَ الماءِ بجَرْيِها، والمرادُ في النَّظمِ الامتنانُ بالرُّكوبِ دونَ شقِّ وجهِ الماء، ولعلَّ اختيارَ ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ من الفَلَك بمعنى الدَّورانِ والطَّواف، فيكونُ صادقًا بالطّائراتِ والقِطاراتِ الَّتي تطوفُ حولَ الأرضِ أيضًا.

دلالةُ استعمالِ (الأنعامِ) دونَ (الإبل):

التَّذكيرُ بالنِّعمةِ تذكيرٌ بشُكْرِ المُنعِم

في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ آثرَ النَّظمُ استعمالَ (الأنعام) دونَ (الإبل)؛ لما في لفظِ (الأنعام) من دلالةٍ على النِّعمةِ التي نُسِي شكرُها والانتباهُ لمُسخِّرِها، وإنْ كان المرادُ بها الإبلَ بقرينةِ المقامِ.

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 198.

سرُّ الاقتصارِ على ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

تسخيرُ الأشقِّ من الفلك والأنعام يؤذنُ بتسخير الأدنى

اقتصرَ النَّظمُ الكريمُ من آلاتِ التَّنقُّلِ على ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ لأنَّهما أعلى أنواعِ ما يركَبُهُ الإنسان؛ إذ الفلكُ تعتلي الأمواجَ مِنَ المياه، والأنعامُ تعتلي الأمواجَ منَ الكُثبانِ الرَّمليَّة، فإن كانَ اللّه تعالى مُسخِّرًا للأشقِّ؛ فُهِمَ بالأولويَّة أنَّه مُسخِّرٌ للأدنى منهما.

دلالةُ الموصولِ في: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾:

المناسبُ لمقامِ الامتنانِ إبهامُ المِنَنِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن المركوباتِ بـ﴿مَا﴾ الموصولةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الإبهامِ المفيدِ للعُموم، الصّادقِ بأنواعٍ كثيرةٍ ممّا يَستعمِلُه الإنسانُ وسيلةً للتَّنقُّلِ، وفي ذلك كمالُ النِّعمةِ وتمامُها لمَنْ أرادَ أن يتأمَّلَ، أو يعقِلَ، وتفسيرُ الإبهامِ بـ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ لا يَقتضي الحصرَ، بل ذكرَ بعضَ الأفرادِ للتَّمثيلِ بصنفَي المركوبِ المائيِّ والبرّيِّ.

دلالة حذف مفعول ﴿تَرۡكَبُونَ﴾:

الإيجاز في الكلام توضيح وإفهام

حذفَ النَّظمُ الكريمُ الضَّميرَ العائدَ على الموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾، والتَّقديرُ: (تركبونه)، وكثيرًا ما يُحذفُ الضَّميرُ المتَّصلُ المنصوبُ العائدُ؛ إيجازًا في اللَّفظ واكتفاءً بالمَرجِعِ ومُحافظةً له هنا على العمومِ والإبهام.

نكتةُ الاقتصارِ على الرُّكوب:

النَّقلُ البرّيُّ والمائيُّ أساسُ العملِ التِّجاريِّ

اقتصرَ النَّظمُ على فائدةِ الرُّكوب، معَ أنَّ للأنعام فوائدَ أُخرى، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أهمّيَّة النَّقلِ البرّيِّ والمائيِّ في العمَلِ التِّجاريِّ، قال الطَّبري: "جعلَ لكم من السُّفُنِ ما تركبونَهُ في البِحارِ إلى حيثُ قَصَدتُم، واعتمدتُم في سَيرِكُم فيها لمَعايِشِكم ومَطالِبِكم، ومن الأنعامِ ما تركبونَهُ في البَرِّ إلى

حيثُ أردتُم مِنَ البُلدان، كالإبلِ والخَيلِ والبِغالِ والحَمير"[1]، وبذلك يتَّسقُ الامتنانُ في جَعْلِ الأرضِ مَهدًا ووضْعِ السُّبُلِ فيها؛ لأهميَّةِ ذلك في تحصيلِ الرِّزق، ويتَّسقُ مع تنزيلِ الماءِ لإحياءِ الأرضِ بالزُّروعِ والأثمارِ، وبذلك يتحقَّقُ خلقُ الأرض وعناصرِ العملِ والقوتِ والمَنافعِ فيها.

دلالةُ التَّعديةِ في: ﴿تَرۡكَبُونَ﴾:

التَّغليبُ تمييزٌ لـلأصـيـلِ مِـنَ التّابِعِ

عدَّى النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الرُّكوب) إلى ضمير ﴿ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾، والتَّقدير: (تركبونهُ) مع أنَّ فِعلَ الرُّكوب يتعدَّى إلى ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ بالحرف، فيقال: ركبتُ فيه "للرَّمز إلى مكانتها"[2]، وإلى (الأنعام) مُباشرةً، فيقالُ: ركبتُ الأنعامَ، وعلَّلَ المفسِّرونَ ذلك بتغليبِ ركوبِ الأنعامِ على ركوبِ الفُلك؛ للفرقِ بين الرُّكوبِ الأصيلِ واللّاحق؛ إذ أصلُ الرُّكوبِ يكونُ للأنعامِ المركوبةِ، في حين أنَّ الفلك لا تُركَبُ أصلًا بل يحصُلُ الرّاكبُ فيها، فكانَ ركوبُهُ لها لاحِقًا، فغلَّبَ النَّظمُ الرُّكوبَ الأصيلَ عليهِ لذلك[3]، وعلَّلَ البيضاويُّ بوجهٍ آخَرَ، فقال: "أوِ المخلوقَ للرُّكوبِ على المَصنوعِ له، أوِ الغالبَ على النّادر"[4]، في حين علَّلَ الهرريُّ التَّغليبَ بقوَّةِ المتعدّي بنفسِهِ على المتعدّي بالحرف، فقالَ: "تغليبُ إحدى اعتبارَيِ الفعلِ لقوَّتِه على الآخَرِ، فإنَّ (ركبَ) يُعدّى إلى (الأنعام) بنفسِه، يقالُ: ركبت الدابَّةَ، وإلى (الفُلك) بواسطةِ حرفِ الجرِّ، يقالُ: ركبتُ في الفُلك"[5].

استعمالُ اللَّفظِ في حقيقتِهِ ومَجازِهِ:

كـلُّ المخلـوقات حيّها وجامِدِها مُسخَّرٌ للإنسان

استعملَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الرُّكوب) من قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 574.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 41.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 173.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 87.
(5) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 239، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 198.

لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ في معناه الحقيقيِّ عندَما أسندَ الرُّكوبَ إلى ضميرِ (الأنعام)، في حين استعملَ الركوبَ بمعنى: الحصولِ في الشَّيء، عندَما أسندَ الرُّكوبَ إلى الفُلك؛ وذلك على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ بتشبيهِ الفُلك بدابَّةٍ، ثمَّ حُذِفَتْ، وأُبقيَ من خواصِّها الرُّكوبُ[1]، ويمكنُ أنْ يقالَ: إنَّ فعلَ (الرُّكوب) موضوعٌ للقدرِ المُشترَكِ، وهو مطلقُ الاعتلاءِ للشَّيء، سواءٌ كان الاعتلاءُ بالاستقرارِ على ظَهْرِهِ أم بالحصولِ فيهِ بعدَ اعتلائِهِ.

دلالة حرف (اللّام) في ﴿لِتَسْتَوُۥا﴾:

عبَّر النَّظمُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ بـ(لام) العاقبةِ أوِ الصَّيرورةِ؛ إذِ الاستواءُ على ظهورِ الفُلك والإبلِ نتيجةٌ وعاقبةٌ للجَعْلِ المَذكورِ، وليس علَّةً وسَببًا له، ففي الحرفِ استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّه المآلَ بالعلَّة بجامعِ التَّرتُّبِ على الشَّيءِ، وتقديرُ النَّظم: (وجعلَ ما تركبونَ لكم، فتستوون على ظهوره)، وإنَّما عبَّر عن المترتِّبِ على الشَّيءِ بالعلَّةِ لإظهارِ النِّعمةِ وإبرازِ الامتنانِ عليهم، كأنَّه الباعثُ للفاعلِ على الفعلِ، وذهبَ البقاعيُّ إلى أنَّ (اللّام) دالَّةٌ على التَّعليلِ[2]، وهو بعيدٌ؛ لأنَّ جعْلَها مركوبةً لا يتمُّ إلّا بأنْ كانتْ صالحةً للرُّكوب، فيكونُ الاستواءُ على ظهورِها مآلًا وعاقبةً لذلك الجَعْلِ.

مآلُ النِّعَمِ العليَّة كالعِلَلِ الغائيَّة

دلالةُ المضارعِ في: ﴿لِتَسْتَوُۥا﴾:

الفعلُ المضارعُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ منصوبٌ بأنِ المُضمرة، دالٌّ على تجدُّدِ الفعلِ واستمرارِه، ومِن شأنِ النِّعمةِ العظيمة أنَّها تكونُ مُتجدِّدةً دائمةً لا تنقطِعُ.

من كمالِ النِّعمةِ استمرارُها

دلالةُ الاستواءِ في: ﴿لِتَسْتَوُۥا﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الحِكمةِ مِن خلقِ ما يَركَبُهُ الإنسانُ في

نِعَمُ اللهِ تعالى كاملةٌ لا يَشوبُها نقصٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 173.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394.

قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ بـ(الاستواءِ) الدّالِّ على الاعتلاءِ على الشَّيءِ والاستقرارِ على سبيلِ الاعتدالِ والثَّباتِ والتَّمكُّنِ[1]، فلا نُبوَّ فيه ولا تزلزلَ ولا اهتزازَ يجعلُ المرتقيَ في حالةِ عدمِ راحةٍ أوِ ارتياح، وبذلك يكمُلُ الامتنانُ، وتعظُمُ النِّعمةُ، وتكمُلُ لهذا الإنسانِ.

دلالةُ (الاستواءِ) بينَ الدّابَّةِ والفُلكِ:

الاستقرارُ في الشَّيءِ مُستلزِمٌ للاستقرارِ عَليه

جمعَ النَّظمُ الكريمُ بينَ (الفُلك والدابَّة) في الاستواءِ عليهما بقولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، معَ أنَّ الاستواءَ بالنِّسبةِ للدَّوابِّ يكون على الظُّهور وبالنِّسبة للفلكِ يكونُ في البُطونِ، وذلك للتَّغليبِ أيضًا، كما أنَّ المُستويَ داخلَ الفلك يكونُ مُستويًا على ظهرِها أيضًا ومعتدلًا.

دلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾ في: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾:

الجمعُ بينَ الاستعلاءِ الحقيقيِّ والمَجازيِّ

عدَّى النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الاستواء) في قولِه تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاءِ، وهذا بالنِّسبة للدَّوابِّ استعلاءٌ حقيقيٌّ، وبالنِّسبةِ للفُلك استعلاءٌ مجازيٌّ؛ إذ الاستواءُ يكون فيها لا عليها، إلّا أنَّه نظرَ إلى أنَّ للسَّفينةِ ظَهْرًا أيضًا[2]، فيكون الاستواءُ عليها استعلاءً حقيقيًّا أيضًا.

دلالةُ جمعِ (الظُّهور) وإفرادِ ضَميرِه:

الضَّميرُ ناظرٌ للَّفظِ، والمضافُ ناظِرٌ للمَعنى

جمعَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (ظَهْر) في قوله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، أي: ظهورِ ما تركبونَهُ من الفُلك والأنعام، ولفظُ ﴿مَا﴾ وإنْ كانَ مفردًا لفظًا إلّا أنَّه جمعٌ معنًى؛ إذ فُسِّرَتْ بالفُلك والأنعام، وجمعُ (الظَّهر) بالنَّظرِ إليه، فيكونُ الضَّميرُ مَنظورًا فيه لِلَفْظِ (ما)، والجمعُ مَنظورٌ فيه للمعنى، فـ: "إيرادُ لفظِ (ظهور) بصيغةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

الجمع، مع أنَّ ما أُضيفَ إليه مفرد نظرًا للمعنى؛ لأنَّ مرجِعَ الضَّمير جمعٌ في المعنى، وإنْ كان مفردًا في اللَّفظ"[1]؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ ظهرٍ من المذكوراتِ مُستوٍ في الصُّعود عليه والجلوس فوقَهُ، وقالَ البقاعي: "جمعَ الظَّهرَ نظرًا للمعنى؛ تكثيرًا للنِّعمة، وأفردَ الضَّمير ردًّا على اللَّفظ؛ دلالةً على كمالِ القُدرةِ بعظيمِ التَّصريف برًّا وبحرًا، أو تنبيهًا بالتَّذكيرِ على قوَّةِ المركوبِ؛ لأنَّ الذَّكرَ أقوى من الأُنثى"[2].

دلالةُ التَّغليبِ في (الظُّهور) وعدمُها:

صـنـعٌ عـجـيـبٌ ونعمةٌ مُحكَمَةٌ

إنَّ الظُّهورَ مِن مُقترَناتِ الدَّوابِّ دونَ الفُلك، ولذا قالَ الهرريُّ: "والظُّهورُ للأنعامِ حقيقةً لا للفُلك، فدلَّ على تغليبِ الأنعامِ على الفُلك"[3]، والَّذي يبدو لنا أنَّ الفلك لها ظهورٌ مثلُ الدَّوابِّ، وكما يكونُ الجلوس في بطونِها يكون الاستقرارُ على ظُهورها أيضًا، فلا تغليبَ[4]، ويمكنُ القولُ بأنَّ الجلوسَ في بطونِ الفلك يكونُ ظهرًا باعتبارِ أنَّها تمخُرُ على ظهرِ الماءِ، فيكونُ جمْعُ (الظُّهور) بالنِّسبة للدَّوابِّ نفسها، وبالنِّسبةِ للفُلك باعتبارِ الماءِ الَّذي تجري عليه، وأيًّا مّا كانت الظُّهورُ حقيقةً أو تغليبًا؛ فإنَّ الاستواءَ على تلك الظُّهور دليلٌ على كمالِ الإتقانِ في النِّعَمِ والصُّنعِ.

دلالةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

التَّراخي في ذكرِ النِّعمةِ دليلُ التَّأمُّلِ في كَمالها

عطفَ النَّظم الكريم بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّه: "لمّا أتمَّ النِّعمةَ بخلقِ كلِّ ما تدعو إليه الحاجةُ، وجعلَهُ على وجهٍ دالٍّ على ما لهُ من الصِّفات؛ ذكرَ ما يَنبغي أنْ يكونَ من غايتِها على ما هو المتعارفُ بينَهم من شُكْرِ المُنعِم، فقالَ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 199، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 41، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 628.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 199.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

دالًّا على عظيمِ قدرِ النِّعمة وعلوِّ غايتِها وعلوِّ أمرِ الذِّكرِ بحرفِ التَّراخي: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ﴾"[1]، ونحسَبُ أنَّ العطف كان بـ﴿ثُمَّ﴾ دونَ (الواوِ أوِ الفاء)؛ لإعطاءِ الفُسحةِ للمُتأمِّلِ قبلَ ذكرِ النِّعمةِ والشُّكرِ عليها، حتّى يكونَ شُكرُهم للمُنعِم عن استغراقٍ في حقيقةِ إنعامِهِ وإكرامِه، أو لأنَّ الإلهامَ إلى معرفةِ ترويضِ الدَّوابِّ وصناعةِ السُّفن بالانتباهِ إلى كيفيّاتِ طَفْوِها يحتاجُ إلى زمنٍ بالنِّسبة للمُخاطَبين.

نكتةُ بيانِ العاقبةِ في: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ﴾:

التَّوطئةُ والتَّمهيدُ لشُكرِ نِعمةِ الحَميدِ المَجيد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ ببيانِ عاقبةِ خَلْقِ المَركوباتِ بالاستواءِ على ظُهورها في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾؛ ليكونَ الاستواءُ عليها تمهيدًا وتوطئةً لذكرِ تلك النِّعمةِ العظيمةِ والشُّكرِ عليها؛ إذ جعلَها مركوبةً سهلةَ القيادِ لا يَنبو الجالسُ عليها، ولا يضجَرُ منها، فيكونُ سببًا لذكرِ تلك النِّعمة والاعترافِ بالخالقِ المُنعِم والتَّوجُّهِ إلى شُكْرِهِ.

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾:

لا سبيلَ للإحاطةِ بالنِّعَمِ عندَ شُكْرِ المُنعِم

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (النِّعمة) إلى (الرَّبِّ) في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراقِ العرفيِّ؛ لأنَّ حالةَ الاستواءِ والارتياحِ تدعو إلى التَّأمُّلِ، فتتوالى النِّعَمُ على الذِّهن، وتتداعى، فيقدمُ المؤمنُ على شُكرها، والنِّعمةُ وإنْ كانت مفردةً لفظًا، لكنَّها دالَّةٌ على جنسِ ما وردَ ذِكرُهُ من نِعَمٍ عديدة، وكانتْ إضافتُها دالَّةً على الاستغراقِ العرفيِّ؛ لشمولِ النِّعَمِ المذكورةِ وغيرها ممّا لا يُحصَى كثرةً، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ الإفرادَ في النِّعمة منظورٌ فيه إلى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وهي مفردةٌ لفظًا جمعٌ معنًى، فيكونُ إفرادُ النِّعمةِ مراعاةً للفظِها.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 394.

نكتةُ الإضافةِ إلى (الرَّبِّ):

الـــرَّبُّ الـكـريـمُ لا يُـعـطـي إلّا العطاءَ الجَزيل

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (النِّعمة) إلى اللهِ تعالى بوصفِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَن خلقَ الأرضَ وجعلَها مَهْدًا، ووضعَ فيها سُبُلًا، وأنزلَ الماءَ لإحيائها، وخلقَ كلَّ شيءٍ، وأتقنَه، ويسَّرَ قيادَهُ والارتقاءَ إليه؛ فهو الرَّبُّ الَّذي يُربّي الأشياءَ، ويُبلِّغُها إلى حالةِ الاكتمال والتَّمام، فتكونُ إضافةُ النِّعمةِ إليه؛ للدَّلالةِ على كمالِ تلك النِّعمة الَّتي لا سبيلَ لأحدٍ على أدائِها وتقديمِها، وفيه تعريضٌ بالمشركينَ الَّذين آمَنوا بربوبيَّتِه، وأشركوا معه آلهةً يَعبُدونَها من دونِهِ؛ إذ كيف يستقيمُ ذلك مع أنَّه المُتفضِّلُ بكلِّ شيءٍ؟

دلالةُ الذِّكرِ في: ﴿تَذْكُرُواْ﴾:

حقيقةُ الشُّكرِ الصّادقِ مصدرُهُ القلبُ والوُجدان

عبَّر النَّظمُ بالذِّكرِ للنِّعَمِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾، وأرادَ به الذِّكرَ القلبيَّ دونَ اللِّسانيِّ؛ لأنَّ حقيقةَ شُكرِ المُنعِم على إنعامِه يكون بعملِ القلبِ والثَّناءِ عليه المتضمِّنِ للاعترافِ بأنَّه المتفضِّلُ والمنعِمُ على سبيل الانفرادِ لا يُشاركُهُ غيرُهُ في الإنعامِ والمنِّ والفَضْلِ، فالمرادُ: "جَعَلَ لَكُم ذَلِكَ نِعمَةً؛ لِتَشعُروا بها، فَتَشكُروهُ عَلَيها، فالذِّكرُ هُنا هو التَّذَكُّرُ بالفِكرِ لا الذِّكرُ باللِّسانِ[1].

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿تَذْكُرُواْ﴾:

الشُّكْرُ عن ذِكرٍ أعمَقُ أثَرًا وأعلى خَبَرًا

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بأسلوبِ الكِناية؛ إذ ذُكِرَ الملزومُ، وأريدَ به لازمُهُ؛ لأنَّ ذِكرَ نعمةِ الله تعالى عندَ التَّلبُّسِ بها يرادُ منهُ شكرُ تلك النِّعمة، وليس مجرَّدُ ذكرِها القلبيِّ والتَّأمُّلِ فيها، ولكنْ لمّا كانَ الذِّكرُ القلبيُّ لها مقدِّمةَ الشُّكر لها؛ عبَّر بالملزوم؛ ليَنتقِلَ الذّاكرُ إلى لازمِه، وهو الشُّكرُ بالقلبِ واللِّسان والجَوارح، "وذِكْرُ النِّعْمَةِ كِنايَةٌ عَن شُكرِها؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

لأنَّ شُكرَ المُنعِم لازِمٌ لِلإنعامِ عُرْفًا، فَلا يَصرِفُ عَنْهُ إلّا نِسيانُهُ، فَإذا ذَكَرَهُ؛ شَكَرَ النِّعمَةَ"[1]، وإنَّما لم يُعبِّرِ النَّظمُ باللّازمِ مُباشرةً بأن يقولَ: لتَشكُروا نعمةَ ربِّكم؛ لأنَّ الشُّكرَ العميقَ يَنبغي أن يكونَ عن ذكرٍ قلبيٍّ وتفاعُلٍ نفسيٍّ عميقٍ حتى يكونَ هنالك شكرٌ عن تأمُّلٍ وإدراكٍ، ونكتةُ العُدولِ: "مِن (تَحمُدوا) إلى ﴿تَذْكُرُواْ﴾ تصوير حالة كون المركوب مُذلَّلًا منقادًا، وأنَّه لولا تمكينُ الله لم يُتمكَّن منه"[2].

نكتةُ التَّقييدِ بـ﴿إِذَا﴾:

الاستواءُ الجَسديُّ يرافِقُهُ اعتدالٌ نفسيٌّ

قيَّد النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ نعمةِ الله تعالى وشُكرَها بالظَّرف ﴿إِذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ لنُكَتٍ جليلةٍ، منها: أهمّيَّةُ اقترانِ الشُّكر على النِّعمةِ عندَ التَّلبُّس بها ومعايَشَتِها والتَّنعُّم بآثارِها، فإنَّ الشُّكرَ يكونُ مُقارِنًا لأفضالِ المُنعِم وإكرامِه، قال ابن عاشور: "فإنَّ ذِكرَ النِّعمَةِ في حالِ التَّلَبُّسِ بِمَنافِعِها أوقَعُ في النَّفسِ وأدعَى لِلشُّكرِ عَلَيها، وأجدَرُ بِعَدَمِ الذُّهولِ عَنها"[3]، ومنها أنَّ الاستواءَ اعتدالٌ وهناءٌ جسديٌّ في الرُّكوب، والنَّفسُ المُستويةُ هي الَّتي تشكرُ المُنعِمَ، ولا تجحَدُهُ حقَّهُ، فيكونُ الاستواءُ والاعتدالُ في الجلسةِ والنَّفس الشّاكرة؛ إذِ الاستواءُ المكانيُّ يَستدعي الاستواءَ النَّفسيَّ، فيُبادِرُ إلى شُكرِ المُنعِم الحقيقيِّ وتلك من خواصِّ النَّفسِ المُعتدلة، ومنها: أنَّ التَّقييدَ بالظَّرف أفادَ التَّعريضَ بالمُشركينَ والجاحدينَ الذينَ يتقلَّبون في نِعَمِ الله تعالى المُحيطةِ بهم، وهم يَشكُرونَ غيرَهُ أو يَستكبِرونَ على شُكرِ المُنعِمِ الحقيقيِّ، فهَذا: "تَعريضٌ بِالمُشرِكينَ؛ إذ تَقَلَّبوا في نِعَمِ الله، وشَكَروا غَيْرَهُ؛ إذِ اتَّخَذوا لَهُ شُرَكاءَ في الإلَهيَّةِ، وهُم لَم يُشارِكوهُ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 14/ 106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

الأنعام"[1]، وفي ذلك التَّعريضِ تسليةٌ للشّاكرين بأنَّ شكْرَهم بإزاء النِّعَم محبوبٌ مقبولٌ.

بلاغةُ ردِّ الأعجاز على الصُّدور:

الاستواءُ الأوَّلُ ذهنيٌّ والثّاني فعليٌّ وواقعيٌّ

في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فنٌّ بديعيٌّ يُسمّى (ردَّ الأعجاز على الصُّدور)، وفائدتُهُ أنَّ عاقبةَ جعْلِ المركوبِ مستويًا عندَ الاستعلاءِ عليه سهلَ القياد غيرَ نابٍ ولا مُتزلزِلٍ أمرٌ ملحوظٌ ذهنًا، ويترتَّبُ عليه شكرٌ عندَ وقوعِهِ وممارستِهِ فِعلًا، وبذا يتَّضحُ الفرقُ بين الاستوائين؛ إذ الاستواءُ الأوَّل دالٌّ على نعمةِ ذلك الرُّكوبِ ومآلِ ذلك التَّسخير ذهنًا، والاستواءُ الثّاني كانَ إيجادًا وتحقُّقًا وممارسةً لتلك النِّعمة بشكلٍ عمليٍّ وواقعيٍّ.

دلالةُ (الواوِ) العاطفةِ في: ﴿وَتَقُولُوا۟﴾:

الإقرارُ بالرُّبوبيَّة والاعـــترافُ بالوحدانيَّة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ على ما قبلَهُ؛ ليكونَ الذِّكرُ اللِّسانيُّ بالتَّسبيحِ والتَّنزيهِ مُرتبطًا بالذِّكر القلبيِّ والشُّكرِ للرَّبِّ على النِّعَم المذكورة، فيتحقَّقُ شكرُ المُنعِم، وهو الرَّبُّ تعالى، ويرتبطُ معَهُ التَّنزيهُ عن الشُّركاءِ والنَّقائص، فيكون هنالك إقرارٌ بالرُّبوبيَّة واعترافٌ بالوحدانيَّةِ معًا، "وإنَّما لم يجئْ (ولتُسبِّحوا)، كما هو المُناسبُ لما قبلَه للتَّشويق إلَى هذا القَوْل، أعني: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾؛ إذ التَّسبيحُ يُطلقُ عَلى التَّنزيهِ بأيِّ كلامٍ كانَ"[2].

دلالةُ المصدرِ ﴿سُبْحَٰنَ﴾:

بحارُ الوحدانيَّةِ عميقةُ الأغـوارِ والأسرارِ

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن مَقولِ القولِ بالتَّسبيحِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، وهو مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 290.

محذوفٍ لزومًا، تقديرُهُ: (نُسبِّحُ سُبحانَ)، أي: نُكثرُ من التَّسبيحِ؛ إذ المصدرُ مأخوذٌ من الفعلِ المضعَّفِ، وهو دالٌّ على الحقيقةِ الكاملةِ، ممّا يُفيدُ مضمونُهُ الاستغراقَ في الوحدانيَّةِ والإعلانَ عن عدمِ مُشاركةِ أحدٍ للّه تعالى في الخلقِ والإنعامِ، "فافتَتَحَ هَذا الشُّكْرَ اللِّسانيَّ بالتَّسْبيحِ؛ لأنَّهُ جامعٌ لِلثَّناءِ؛ إذِ التَّسْبيحُ تَنْزيهُ اللّه عَمّا لا يَليقُ، فَهو يَدُلُّ عَلى التَّنْزيهِ عَنِ النَّقائِصِ بِالصَّريحِ، ويَدُلُّ ضِمْنًا عَلى إثْباتِ الكَمالاتِ للّه في المَقامِ الخَطابيِّ"[1]، فالتَّنزيهُ للّهِ تعالى مُستلزِمٌ للثَّناءِ عليه، فيكونُ مُشتمِلًا على الحَمْدِ، فهو تنزيهٌ وثناءٌ، بقي أنَّ صيغةَ التَّسبيحِ مفيدةٌ لمعنى التَّعجُّبِ؛ إذ لمّا ظهرَ لهم أنَّ تلك الفُلكَ والأنعامَ مسخَّرةٌ لهم؛ تعجَّبوا من كمالِ عظَمةِ اللّه وقُدرتِه، فقالوا ذلك على سبيلِ التَّعجُّبِ والاستعظامِ[2].

دلالةُ تلقينِ صيغةِ التَّسبيحِ:

تعليمُ الألفاظِ دعـوةٌ للتَّأمُّلِ بمضامينِها

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بأسلوبِ الإرشادِ القوليِّ عندَ شُكرِ المُنعِمِ في قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، فقد تضمَّنَ النَّظمُ تلقينَ صيغةِ القولِ وصيغةِ الشُّكرِ لجملةٍ معيَّنةٍ تقالُ عندَ الاستواءِ، كما لقَّنَ صيغًا كثيرةً كصيغةِ الحمدِ وصيغةِ الاسترجاعِ وغيرهما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، وقوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة: 156]، قال ابن عاشور: "فَلَقَّنَهُم صيغَةَ شُكرٍ عِنايَةً بِه، كَما لَقَّنَهُم صيغَةَ الحَمدِ في سورَةِ الفاتِحَةِ وصيغَةَ الدُّعاءِ في آخِرِ سورَةِ البَقَرَةِ"[3]، وفي ذلك إرشادٌ لحقيقةِ الألفاظِ الَّتي يريدُ اللّه تعالى من الإنسانِ أن يقولَها، إرشادًا منه وتعليمًا لما يُنالُ به رِضاه، ودعوةً للتَّأمُّلِ بمضامينِها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 41.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

دلالةُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن المُنزَّه بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ للدَّلالة على ذاتٍ معهودةٍ معلومةٍ عند المُخاطَبين؛ إذ المُستأثِرُ بالإيجادِ والخلقِ إنَّما هو الله تعالى دونَ ما سِواه، وفيه تعريضٌ بالجاهلين؛ إذ كيفَ يُعلَمُ أنَّه الرَّبُّ الخالقُ الموجِدُ المُسخِّرُ لكلِّ شيءٍ، ويُشرَكُ معَهُ غيرُهُ، ويُعبَدُ مَن سِواه، ولذا آثر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالموصولِ عن التَّعبير باسمِ العلَم.

التَّعريضُ بالمُشركينَ والرَّدُّ على الجاهلينَ

دلالةُ صلةِ الموصولِ ﴿سَخَّرَ﴾:

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عن الذّاتِ الإلهيَّةِ بالاسمِ الموصول في قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ للدَّلالةِ على تعليلِ الحمدِ والتَّسبيح لله تعالى بما تضمَّنَتْهُ جملةُ الصِّلة، والتَّقديرُ: (ننشئُ التَّنزيهَ لله تعالى؛ لأنَّه المُسخِّر لهذا)، فاستِحْضارُ الجَلالَةِ بطَريقِ المَوصوليَّةِ؛ لِما يُؤْذِنُ بِهِ المَوصولُ مِن علَّةِ التَّسبيحِ حَتَّى يَصيرَ الحَمْدُ الَّذي أفادَهُ التَّسْبيحُ شُكْرًا لِتَعليلِهِ بِأَنَّهُ في مُقابَلَةِ التَّسْخيرِ لَنا"[1]، ويفيد التَّعليلُ الاعتراف بالتَّسخير المستلزم وجود المسخِّر الحكيم العالم، ومَن قدر على تسخير الأشياء؛ فهو الخالق لها الجاعل لها وظيفة معيَّنة.

تعليلُ التَّسبيحِ دالٌّ على الإقرارِ بالخالقِ

دلالةُ فعلِ (التَّسخير):

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريم استعمالَ فعلِ (التَّسخير) في قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، "والتَّسخير: التَّذييل والتَّطْويعُ، وتَسْخيرُ الله الدَّوابَّ هو خَلْقُهُ إيّاها قابِلَةً لِلتَّرويضِ فاهِمَةً لِمُرادِ الرّاكِبِ، وتَسخيرُ الفُلْكِ حاصِلٌ بِمَجموعِ خَلْقِ البَحرِ صالِحًا لَسَبحِ السُّفُنِ عَلَى مائِه، وخَلْقِ الرّياحِ تَهُبُّ، فَتَدْفَعُ السُّفُنَ عَلَى الماءِ، وخَلْقِ حيلَةِ الإنسانِ لِصُنْعِ الفُلْكِ، ورَصْدِ مَهابِّ الرّياحِ،

التَّعريضُ بالمُشركينَ في عبادةِ المُسخَّرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 174.

ووضْعِ القُلوعِ والمَجاذيفِ، ولَوْلا ذَلِكَ؛ لَكانَتْ قوَّةُ الإنْسانِ دونَ أنْ تَبْلُغَ استِخْدامَ هَذِهِ الأشياءِ القَويَّةِ"[1]، وللدَّلالةِ على أنَّ الجماداتِ والحيواناتِ خادمةٌ للإنسان؛ إذ فعلُ التَّسخيرِ يدلُّ على العملِ بلا عِوضٍ ولا مُقابلٍ، مع ما يوحيهِ بالإهانةِ والتَّحقيرِ، وفي ذلك كنايةٌ عن كمالِ الإنعام؛ إذ يَعتليها الإنسانُ، وتنقلُهُ من مكانٍ إلى آخرَ بلا مقابلٍ، وفيه تعريضٌ بالمشركينَ؛ إذ يَعبُدونَ المسخَّرَ لهم باتِّخاذِهِمُ الأوثانَ مَعبوداتٍ من دونِ اللّه تعالى.

دلالةُ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿لَنَا﴾:

كمالُ النِّعمةِ تخصيصُ المُسخَّرِ بالشّاكرين

قدَّم النَّظمُ الكريمُ شبهَ الجملةِ الواقعةِ حالًا ﴿لَنَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ على المفعولِ به المُشارِ إليه؛ للدَّلالة على تقييدِ التَّسخيرِ بالمسخَّر لهم، وفي ذلك إتمامٌ للنِّعمة؛ إذ إنَّه مسخَّرٌ بكونِهِ لنا دونَ مَن سِوانا.

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

الشُّكرُ عندَ مُشاهدةِ النِّعمة صِدقٌ ورَغبة

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن المشارِ إليه، وهو كلُّ من الفُلك والأنعام باسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ للدَّلالة على كمالِ استحضارِهِ وتميُّزِهِ عندَ المتكلِّم المُثني؛ فاسمُ "الإشارَةِ موجَّهٌ إلَى المَركوبِ حينَما يَقولُ الرّاكِبُ هَذِهِ المَقالَةَ من دابَّةٍ أو سفينة"[2]، ومن أفضلِ الشُّكرِ وأكملِهِ أن تكونَ النِّعمةُ حاضرةً عند الشّاكرِ ظاهرةً لديه، يتنعَّمُ بها فيُنشئُ الثَّناءَ والتَّسبيحَ بكلِّ صدقٍ ورَغبةٍ، وبيَّن الطّيبيُّ أنَّ في لفظِ ﴿هَٰذَا﴾ مزيدَ تقريرٍ لمَعنى التَّعجُّب[3] المُفادِ من (سُبحان).

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ (واو) الحال في قولِهِ تعالى: ﴿سَخَّرَ لَنَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 106.

هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على القدرةِ الإلهيَّة التّامَّةِ على التَّسخيرِ للمَخلوقات، الَّتي قد يُظَنُّ للغافلينَ أنَّه تسخيرٌ إنسانيٌّ، يكونُ بصِناعةِ الفُلك وترويضِ الدَّوابِّ، فاحترزَ النَّظمُ عن ذلك الوهمِ بجملةِ الحالِ؛ نفيًا لتأثيرِ السَّببِ النّاقصِ، وتثبيتًا لفاعليَّة اللّه تعالى في الأسبابِ والمسبَّبات معًا، "وجُملَةُ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَنَا﴾، أي: سَخَّرَها لَنا في حالِ ضَعفِنا بأن كانَ تَسخيرُهُ قائمًا مَقامَ القوَّة"[1].

اختصاصُ مَولانا بخَلْقِ المُسَبَّباتِ كما اختصَّ بخلْقِ الأسباب

دلالةُ النَّفي بـ(ما):

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(ما) النّافية؛ للدَّلالة على استغراقِ الأزمنةِ الماضية معَ التَّأكيدِ للنَّفي؛ نفيًا للطّاقةِ والحَوْلِ عن فعلِ التَّسخير وما يوصِلُ إليه، وذلك من أعظَمِ أنواعِ الثَّناء بأنْ يَتبرَّأ الشّاكرُ المسبِّحُ من حَوْلِه وقوَّتِه في فعلِ شيءٍ من تلك النِّعَم.

استحضارُ النِّعمةِ مُزيلٌ للحَوْلِ والقوَّة

دلالةُ فعلِ الكَينونةِ المَنفيِّ:

وجَّهَ النَّظمُ الكريمُ النَّفيَ إلى فعلِ الكَوْنِ دونَ الخبرِ نفسِه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، فلم يقل: وما نحنُ مُطيقينَ وقادرينَ، وذلك لأنَّ نفيَ فعلِ الكونِ، وهو يدلُّ على مطلَقِ الحدث، ثمَّ يتوجَّهُ إلى الحدثِ بخصوصِه يكونُ أكثرَ تمكُّنًا في النَّفي وتحقُّقًا له؛ إذ لم يوجَد كونٌ يتحقَّقُ فيه الطّاقةُ والحَولُ، فضلًا عن وجودِهما أصلًا.

عدمُ حدوثِ الكَوْنِ فَضْلًا عن حدوثِ الإطاقةِ

دلالةُ لفظِ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ في السّياق:

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ الكريم لفظَ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطيقينَ وقادرينَ؛ لأنَّ الفعلَ (أقرنَ له) صارَ مُطيقًا مثلَهُ، كالإقران والمُقارنة، "قالَ الزَّجّاج: ﴿مُقْرِنِينَ﴾:

نفيُ الطّاقةِ يَستلزِمُ نفيَ الفِعلِ أصلًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.

مُطيقينَ، واشتقاقُهُ من قولِك: أنا لفلانٍ مُقرنٌ، أي: مُطيقٌ، أي: قد صِرتُ قِرنًا له"[1]، "وقالَ الواحِديُّ: وكَأنَّ اشتِقاقَهُ مِن قَولِكَ: ضربَ له قِرنًا، ومعنى: أنا قِرْنٌ لِفُلانٍ، أي: مِثالُهُ في الشِّدَّةِ، فَكَأنَّ المَعْنَى: أنَّهُ لَيسَ عِندَنا مِنَ القوَّةِ والطّاقَةِ أن نَقْرِنَ هَذِهِ الدّابَّةَ والفُلْكَ، وأنْ نَضْبُطَها"[2]، وفي ذلك نفيٌ لأصلِ الطّاقةِ والحَوْلِ والقوَّةِ والقُدرة، فضلًا عن مُمارسةِ الفعل وتحقيقِهِ وإنجازِه، وبناءً على هذا المعنى يكونُ الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ عائدًا إلى التَّسخيرِ المفهومِ مِن ﴿سَخَّرَ﴾.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

على السّالكينَ في مَقامِ الثَّناء التَّجرُّدُ والفَناء

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ المُتعلِّقَ باسم الفاعل ﴿مُقْرِنِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ؛ إذ لا إطاقةَ للعبدِ على التَّسخيرِ وغيرِه، كما يحصلُ بهذا التَّقديمِ انسجامٌ بينَ ﴿سَخَّرَ لَنَا﴾ وبين ﴿لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، فهو يُسخِّرُ عن قدرةٍ عظيمةٍ لنا، ونحن عاجزونَ عن أيَّةِ قُدرةٍ فضلًا عن تأثيرٍ، "وقيلَ: إنَّ مَعنى ﴿مُقْرِنِينَ﴾: مُماثِلينَ لَهُ في القوَّةِ، مِن قَولِهِم: هو قِرْنُ فُلانٍ؛ إذا كانَ مِثْلَهُ في القوَّةِ"[3]، وبناءً عليه فإنَّ الضَّمير في (له) عائدٌ إلى اللّه تعالى، ويكون التَّقديم مفيدًا للاختصاص.

نكتةُ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعل:

العَجزُ التّامُّ والافتقارُ الدّائم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن نفيِ الإطاقةِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الوصفِ على سبيلِ الحُدوثِ والحصول، فلا مُحاولةَ تنجحُ في تحقيقِ التَّسخير مهما تعدَّدَتْ، وتكاثَرَتْ.

دلالةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَإِنَّآ﴾:

الدُّنيا دارُ ارتحالٍ وزَوال

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ على

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 108.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 622.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 628.

ما قبلَهُ؛ للدَّلالة على اقترانِ الثَّناءِ والتَّسبيحِ للّه تعالى بتذكُّرِ الرُّجوع إليه تعالى، والجامعُ بينَهما خياليٌّ، "واتِّصالُهُ بذلك؛ لأنَّ الرُّكوبَ للتَّنقُّلِ، والنِّقلةُ العُظمى هو الانقلابُ إلى اللّه تعالى، أو لأنَّه مَخطَرٌ، فيَنبغي للرّاكب ألّا يغفَلَ عنه، ويستعدَّ للقاءِ اللّه تعالى"(1)، والرُّجوعُ من الأسفارِ إلى الوطنِ حالةٌ مُذكِّرةٌ بالرُّجوعِ من دار الدُّنيا إلى دار الآخِرة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ السَّفر وما فيهِ مثلُ رحلةِ الدُّنيا، وأنَّ السَّفرَ مهما طالَ؛ فلا بدَّ من عَوْدة، ودارَ الدُّنيا مهما طالَتْ؛ فلا بدَّ من العودةِ إلى اللّه تعالى، فناسبَ عطفُ هذا الجزء من القَولِ على ما قبلَه، "وهَذا إدماجٌ لِتَلْقينِهِمُ الإقرارَ بالبَعث، وفيهِ تَعريضٌ بِسُؤالِ إرجاعِ المُسافرِ إلَى أهلِه، فَإنَّ الَّذي يَقدِرُ عَلى إرجاعِ الأمواتِ إلى الحَياةِ بَعدَ المَوتِ يُرجَى لإرجاعِ المُسافرِ سالِمًا إلى أهلِه"(2).

التَّغايرُ بينَ المُتعاطفين:

العدولُ عن التَّناسُبِ إعجازٌ مبين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّةَ الخبريَّةَ على الجملةِ الفعليَّةِ الإنشائيَّةِ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾: "إذ الانقلابُ إلى الرَّبِّ للجزاءِ يُنكِرُهُ كثيرٌ من النّاس أو يتردَّدونَ فيه، فالمقامُ مَقامُ التَّأكيدِ، فأُكِّدَ بتأكيداتٍ، وهي: الجُمْلَةُ الاسميَّة وكلمةُ إنَّ واللّامُ، ولتَحْصيل هذه الفائدَةِ لم يُراعِ لمُحسِّنات الوصل التَّناسُبَ بينَ الجملتينِ في الفعليَّة؛ إذ التَّسخيرُ لكونِه أمرًا بديهيًّا لا يحتاج إلَى التَّأكيد"(3)، وعبَّر بالجملةِ الفعليَّة عنِ التَّسخير؛ لأنَّه متجدِّدُ الخلقِ والتَّكوين، وعن الانقلابِ إلى اللّه تعالى بالجملةِ الاسميَّة؛ لأنَّ ذلك أمرٌ ثابتٌ ومقرَّرٌ ردًّا على المُنكرينَ والنّافينَ له، وعبَّر عن الشُّكر بالجملة

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 87، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 622، والزّمخشري، الكشّاف: 4/ 240.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 175.

(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 292.

الإنشائيَّة؛ لأنَّ الشُّكر مطلوب إيجادُهُ، وذلك بالإنشاءِ يتحقَّقُ، وعن الانقلابِ إلى اللهِ بالخبريَّة؛ لأنَّ ذلك مطلوبٌ اعتقادُهُ، فيُناسبُهُ اعتقادُ النِّسبة الخبريَّة واليقينُ بمضمونِها.

دلالةُ توالي المؤكِّدات:

حشَدَ الخطابُ المؤكِّدات لتأكيد العود إلى الله

تَوالَت في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ مجموعةٌ من المُؤكِّدات، هي (إنَّ، واللّامُ المُزحلَقَةُ، واسميَّةُ الجُملةِ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور)؛ للدَّلالة على تحقيقِ هذه النِّسبة المتعلِّقة بالعودةِ إلى اللهِ تعالى خصوصًا؛ إذ لا يشكُّ عاقلٌ في أنَّ السَّفرَ لا بدَّ له من إيابٍ إلى الأهلِ ونهايةٍ في الطَّريق، وأنَّ الحياةَ لا بدَّ لها من نهايةٍ، لكنَّ الجزءَ الَّذي لوحِظَ في التَّوكيد، وهو محلُّ الإنكار متعلِّقٌ بمضمونِ قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾، فكان التَّأكيدُ مُراعيًا له، وجاء التَّعبير بصيغةِ الجمعِ معَ أنَّ القائل واحدٌ؛ لأنَّ التَّشريكَ في مثله مثلُ التَّشريكِ في الدُّعاء أقربُ من حصولِ المقصود[1].

إظهارُ اسمِ الرَّبِّ دونَ الإضمار:

من لوازمِ الاعتقاد تفخيمُ المُعتقَدِ به

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿رَبِّنَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، وكان الظّاهر (وإنا إليه لمنقلبون)؛ لكونه مَعْطوفًا عَلَى ﴿سَخَّرَ لَنَا﴾، لكن أظهرَ في مَوضِعِ المُضمَرِ؛ لكمالِ التَّقرُّرِ وللتَّفخيم، واختيرَ اسمُ الرَّبِّ هنا دون غيره؛ لأنَّ الانقلابَ من آثارِ التَّربيَة[2]، وفي ذلك إرشادٌ وحثٌّ على تفخيمِ المعتقدِ الدّينيِّ في قلوب المُعتقِدينَ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾:

لكلِّ سفَرٍ نقطةُ بدايةٍ هي محلُّ العَودة

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ على مُتعلَّقِهِ ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 292.
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 292.

اختصاصِ انقلابِ القائلينَ بالعودةِ إلى اللّه تعالى دونَ ما سِواه، وفي ذلك التَّقديم أيضًا ردٌّ وتعريضٌ بالمشركينَ، الَّذين يَنفونَ البعثَ والنَّشرَ والحَشْرَ بدليلٍ حسّيٍّ، وهو السَّفر، الَّذي يلزمُ منه الانطلاقُ من مكانٍ، والعَودةُ إلى المكانِ نفسِه، والدُّنيا أيضًا انطلاقةٌ من عندِ اللّه تعالى ثمَّ عَوْدةٌ إليه؛ إذ كانوا يُؤمِنونَ بأنَّ الخالقَ هو اللّه تعالى، لكنَّهم يُنكرونَ العَوْدةَ إليه تعالى بالمَوتِ.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ مادَّةً وصيغةً:

الرُّجوعُ القسريُّ ولا مَحالةَ إلى اللّه تعالى

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن عودةِ المُسافرينَ سَفَرًا دُنيويًّا وأُخرويًّا بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المشتقَّةِ من الانقلابِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ لأنَّ الانقلابَ منَ القلْبِ والرُّجوعِ؛ للدَّلالةِ على حالةٍ تعاكُسيَّةٍ ورجوعٍ إلى نقطةِ البداية، وأمّا الصّيغةُ؛ فإنَّها دالَّةٌ على المطاوعةِ، وهي تشير إلى أنَّ عمليَّةَ الرُّجوعِ ليست اختياريَّةً، وكأنَّ هنالك قوَّةً ضاغطةً للعودةِ، فينقلبُ راجعًا، ومن المعلوم أنَّ الموت استجابةٌ قسريَّةٌ، فناسبَ التَّعبيرُ عن العودةِ بهذه الصّيغة، كما أنَّ العودة إلى الوطن استجابةٌ قسريَّةٌ لهُ وللأهلِ والولَد.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

أزْواجٌ وفرادى:

الزَّوجُ أخصُّ من الفردِ مُطلقًا

(الزَّوج) في كلامِ العرَبِ يُطلَقُ على الواحدِ الَّذي له شبيهٌ من صنفِهِ أو نَوْعِه، ولذا يقالُ: "لفُلانٍ زوجانِ من الحَمام، أي: ذكرٌ وأُنثى، قال سُبحانَهُ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: 27][1]، "وأنْكَرَ النَّحْويّونَ أنْ يَكونَ الزَّوْجُ اثنَيْنِ، والزَّوْجُ عندهمُ الفَرْدُ، وقالَ ابْنُ الأنْباريِّ: والعامَّةُ تُخْطِئُ، فَتَظُنُّ أنَّ الزَّوْجَ اثنانِ، ولَيسَ ذَلِكَ مِن مَذهَبِ العَرَبِ؛ إذ كانوا لا يَتَكَلَّمونَ بِالزَّوجِ موحَّدًا في مِثلِ قَولِهِم:

(1) الخليل، العين: 6/ 166.

زَوْجُ حَمام، وإنَّما يَقولونَ زَوجانِ مِن حَمام، وزَوجانِ مِن خِفافٍ، ولا يَقولونَ لِلواحِدِ مِنَ الطَّيْرِ: زَوْجٌ، بَلْ لِلذَّكَرِ فَردٌ ولِلأُنثَى فَردَةٌ، وأمّا تسميتهمُ الواحِدَ بِالزَّوْجِ؛ فَمَشْروطٌ بِأن يَكونَ مَعَهُ آخَرُ مِن جِنْسِه، والزَّوْجُ عِندَ الحِسابِ خِلافُ الفَرْدِ، وهو ما يَنقَسِمُ بِمُتَساوِيَين"[1]، والَّذي يتبيَّنُ أنَّ علاقةَ التَّبايُنِ في اصطلاحِ أهلِ الحِساب، وأمّا عند العرب الفصحاءِ؛ فإنَّ الزَّوجَ أخصُّ مُطلقًا من الفرد؛ إذِ الزَّوجُ مأخوذٌ بشرطِ الشَّبيهِ بخلافِ الفردِ.

(اسْتَويْتُم) و(صَعَدْتُم) و(عَلَوْتُم) و(رَكِبْتُم):

الاستواءُ يَستلزِمُها جميعًا بخلافِها

الصُّعودُ تصويرٌ لعمليَّةِ الارتقاءِ من الأسفلِ إلى الأعلى، ويَنتهي الفعلُ بحدودِ الوصولِ إلى العلوِّ، فإذا اعتلاه؛ يقالُ: عَلَوْتُهُ، فإذا أخذَ وضعيَّةَ الرُّكوبِ المُناسبةَ لذلك، يقالُ حينئذٍ: رَكِبَهُ، فإن رَكِبَهُ، وتمكَّنَ من الجلوسِ والاستقرارِ والرّاحةِ؛ يقالُ: استَوى عليه، وبهذا يكونُ الاستواءُ على الشَّيءِ مُستلزِمًا لذلك كلِّه بخلافِها، ومِن ثمَّ آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ - في مقامِ التَّفضُّلِ والامتنانِ بتسخيرِ وسائلِ النَّقلِ المُعتدلةِ المُريحةِ - التَّعبيرَ بالاستواءِ دونَ غيرِه.

الظَّهر والبطن:

الظَّهرُ إمّا مُشترَكٌ لفظيٌّ أو تغليبيٌّ

الظَّهرُ خلافُ البَطنِ، وتطلقُ الظُّهورُ على الخارجِ وعلى الجهةِ المقابلةِ لبُطونها، وسُمّي ظَهْرًا لظهورِه للعين، وأمّا البُطونُ؛ فتطلقُ على ما في الدّاخلِ والجهةِ المُقابلةِ للظُّهور، لكنْ قد يُستعمَلُ الظَّهرُ، ويرادُ به البطنُ، إمّا على سبيلِ الاشتراكِ اللَّفظيِّ أوْ بطريقِ التَّغليبِ المَجازيِّ، عندما يردُ (الظَّهر) واصفًا لأمرينِ يختلفانِ ظَهْرًا وبَطْنًا، فيُغلَّبُ الظَّهرُ على البَطن، فيقالُ: (ظهور)، ومِن ثمَّ عبَّر المولى تعالى في قوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ مع أنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى ما يركبُهُ الإنسان من بطونِ الفُلك وظهورِ الدَّوابِّ، لكنْ غلَّبَ الظهرَ،

(1) الفيومي، المصباح المنير: 1/ 258.

ولعلَّ سرَّ التَّغليب أنَّ الأصل في الاستواءِ على الشَّيءِ يكونُ على ظهرِهِ دونَ بَطْنِه، كما أنَّ الفُلكَ العظيمةَ قد يُستقَرُّ على ظهورِها كما يُستقَرُّ في بطونِها، فراعى الظُّهورَ دونَ البُطونِ.

(مُنقلبون) و(راجعونَ):

الـرُّجـوعُ أمـرٌ اخـتـيـاريٌّ والانـقـلابُ أمـرٌ قسريٌّ

يُستعمَلُ كلٌّ من (الانقلاب والرجوع)؛ للدَّلالة على العودةِ بعد الذَّهاب، والإيابِ بعدَ الاتِّجاهِ إلى مكانٍ معيَّن أو موقفٍ أو رأيٍ ما، فيقالُ: انقلبَ إليه، ورجعَ عنه، إلّا أنَّ الرُّجوعَ يكونُ عمَلًا اختياريًّا، فيقالُ: سافرَ، ورجعَ إلى بلدِه، وأمّا الانقلاب؛ فيكونُ قسريًّا لدلالةِ المُطاوعة على تأثيرِ القلب فيه، فيستجيبُ له، ومن ثمَّ آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عنِ الرُّجوع إلى الله تعالى بالانقلابِ في قولِ المُسافِر: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ دونَ (راجعون)؛ لأنَّ السَّفرَ مَظِنَّة الخطرِ، فيتعرَّضُ في الطَّريق للهلاك، فيكونُ انقلابُهُ إلى الله تعالى أمرًا اضطراريًّا، بخلافِ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]؛ لأنَّ هذا القولَ بعدَ حُلولِ المُصيبةِ للآخر بخلافِ الدُّعاءِ في السَّفرِ فإنَّه على مَظِنَّة وقوعِ الخَطر.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"